شهرزاد في الأدب الفرنسي

شريفي عبد الواحد

جامعة وهران

I - شهرزاد الشرق :

تعد " ألف ليلة وليلة " من أبرز القصص العربية الشعبية التي أثرت تأثيرات متنوعة وبالغة الخطورة في الآداب الأوربية ، في مسرحياتها وقصصها وشعرها ... فهي من الحكايات النادرة التي راجت في العالم رواجا منقطع النظير ... مصدر فني خصب وممتع ، ألهم الأدباء والفنانين بمادته الحكائية الغزيرة ، وأجوائه الشرقية الساحرة ، ومغامراته الأسطورية العجيبة ...

وحكايات " ألف ليلة وليلة " ترويها بطلة فذة تدعى "شهرزاد" ... هذه المرأة التي" قرأت الكتب والتواريخ وسير الملوك وأخبار الأمم" والتي استطاعت أن تتحدى الموت ، بل أن تؤجل قرار إعدامها بعد أن مهدت للملك العظيم "شهريار" - الرجل الذي اكتشف خيانة زوجته وقرر الانتقام من النساء - طريقا مشوقا يثير حب استطلاعه وفضوله ... إنها شخصية قادرة على الصبر والمواجهة أديبة وفيلسوفة موهوبة ألهمت الفنانين في كل مكان وأتاحت لهم الهروب إلى عوالم جميلة وممتعة خالية من الكآبة والبرودة ...

وحكاية "شهرزاد" في " الليالي" لا تحتل سوى صفحات قليلة (ثلاث صفحات) إذ سرعان ما تختفي شخصيتها وراء أحداث الحكايات والقصص الغزيرة وتتوارى ، ولا يبقى سوى صوتها الناعم الدافئ الذي نسمعه طوال الليالي فتنقش كلماته على سطح الذاكرة . وهذه الحكاية " حكاية شهرزاد والملك شهريار " تسمى " الحكاية الإطار " (- CONTE CADRE) ، بوصفها تعلو على جميع الحكايات وتحويها وتوصل ما بين أجزائها بخيط رقيق :" وأدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح ... فقالت لها أختها : يا أختي! ما أحلى حديثك وأطيبه . فقالت

لها شهرزاد : وأين هذا مما أحدثكم به الليلة المقبلة إن عشت وأبقاني الملك .. فقال الملك في نفسه : والله لا أقتلها حتى أسمع بقية حديثها لأنه حديث عجيب ..." (1)

وشهرزاد (صوت القاص الشعبي) وزعت قصصها وحكاياتها على ليال ، يكون الفجر فيها حاجزا فاصلا بين الحكاية وأجزائها الطويلة ، أوبين الحكاية الفرعية والأخرى (2) ولا شك في أن هذا الأسلوب في التوزيع يحمل عنصر التشويق ، لأن الأحاديث تقطع - عادة - في موقف مشوق ، يثير اهتمام السامع (أو القارئ) وحسب استطلاعه ... فشهرزاد " نجت من سوء مصيرها لأنها عرفت كيف تحسن استخدام سلاح التشويق ، تلك الأداة الوحيدة في الأدب التي لها سلطان على المتوحشين ... فعلى الرغم من أن روايتها كانت عظيمة ، رائعة في وصفها ، عادلة في حكمها ، ذكية في سرد الحوادث ، تقدمية في دروسها الأخلاقية ....إلا أنها لم تعتمد على شيء من هذا ، وهي تحاول أن تنقذ حياتها من زوجها الفظ ... فهي لم تبق على قيد الحياة إلا لأنها استطاعت أن تجعل الملك يتساءل دائما : ماذا سيحدث بعد ذلك ؟ (3)

وحكايات شهرزاد متفاوتة من حيث الطول ، يحدد حجمها طبيعة الموضوعات وعدد الأبطال والحواجز الأسطورية التي تعرقل مسارهم . فثمة حكايات طويلة تتفرع منها حكايات قصيرة عديدة ، يتحول فيها الأبطال الذين كانوا ثانويين في "الحكاية الأم " إلى أبطال محوريين يقصون ما حدث لهم في الماضي أو الحاضر . وهناك حكايات قصيرة ، وهي إما أن تكون مستقلة بذاتها أو متفرعة من حكاية طويلة ...

وحكايات شهرزاد تتسم ببراعة الوصف وسعة الخيال . وتتجلى هذه القدرة عند تصوير القصور الشامخة ، ومجالس الرقص والطرب ، وحياة الحريم والجواري ، ومغامرات الأسفار ، ووصف الجزر الخيالية في العالم السفلي ، والجن والعفاريت والحوريات والجبال المغناطيسية إلى غير ذلك من اللقطات الفنية الفريدة في الآداب الإنسانية التي تثير الدهشة وتضفي على القصص عنصر التشويق . أما أسلوبها فهو سهل وبسيط ، لا تكلف فيه " سهل المأخذ ، مطرد السياق ، سوقي اللفظ ، مبسوط العبارات ، كثير الفضول ، جري الإشارة" ... (4)

هذه هي حكايات شهرزاد ، جزء أصيل من التراث العربي الشعبي ، وعنوان عريض من عناوين الأدب العالمي ... ترجمت إلى أكثر لغات العالم ، واعتنى بها الدارسون في مختلف أنحاء المعمورة: انفتحت لها أبواب الأنتروبولوجيا والفلكلور وعلم اللغة ، واحتضنها التاريخ وعلم الحضارة المقارن وعلم الاجتماع ، ورحبت بها الدراسات المقارنة في جامعات العالم ... إنها مادة خصبة للتنقيب والتمحيص ومصدر فني لا ينضب...

II – شهرزاد الفرنسية :

1- ترجمة أنطوان جالان :

من المعروف أن القارئ الفرنسي في القرن الثامن عشر ، مدين في معرفته بـ " ألف ليلة وليلة " للمستشرق الفرنسي أنطوان جالان (5) ، الذي قام لأول مرة في تاريخ أوربا الأدبي ، بترجمة الكتاب إلى اللغة الفرنسية ، ما بين 1704 و 1717 ، في اثني عشر مجلدا .

ومن المعروف أيضا أن هذه الترجمة قد نالت نجاحا باهرا وراجت في كل أنحاء أوربا : تنافست عليها دور النشر ، وظلت مدى قرن كامل الترجمة الوحيدة التي عرف بها العالم الغربي ليالي شهرزاد. ويبدو أن هذا النجاح لا يمكن تفسيره إلا بسببين : أولهما أن جالان كان مترجما قديرا وأديبا فذا استطاع أن يقدم لقرائه أجود حكايات الكتاب بأسلوب قصصي بارع يتسم بالوضوح والرشاقة ... ثانيهما هو ظهور هذه الترجمة في الوقت المناسب ، إذ سئم القراء في أوائل القرن الثامن عشر من الأدب الكلاسيكي الذي جمدته قوالب فنية لا تقبل التطور، وراحوا يبحثون عن أدب جديد قادر على إلهاب الخيال ...

لقد بذل جالان جهدا كبيرا في ترجمة النص العربي إلى اللغة الفرنسية ، إذ استطاع أن ينفذ إلى روح " الليالي " مطوعا لغتها لقبول المعاني العربية قبولا لا يظهر فيه الشذوذ أو النشاز ... وعلى الرغم من أنه جهد لأن يكون أمينا للنص العربي ، فإن الدارسين قد وجهوا إليه مجموعة من الانتقادات يمكن تلخيص أهمها في النقاط التالية :

- تبسيط الحكايات وتعديلها .
- حذف حكايات وإضافة قصص أخرى لا تمت إلى الليالي بصلة .
- حذف الشعر واللقطات الجنسية الجريئة .

أ التصرف :

في الحقيقة ، إن جالان ترجم حكايات 'الليالي " بتصرف ، ولكن باعتدال ومهارة . فهو لم يتردد في اختصار ما رآه استطرادا مملا ؛ يكفيه - مثلا - أن يقول " سيدة جميلة رشيقة " بدون أن يدخل في التفاصيل التي يسهب النص الأصلي في وصفها ، كما أنه يفضل كتابة " اختارت عدة أنواع من الفواكه والخضر " بدون أن يعدد بصورة مملة مشتريات السيدة الكثيرة .

لقد كان هذا المترجم واعيا أن " الليالي " يكثر فيها التكرار ، لأنها وضعت خصيصا لجماهير شعبية بسيطة تحتاج إلى الشروح والتفاصيل (أكثر الجميلات - مثلا - لهن وجه كالبدر ، وفم كخاتم سليمان ...) لهذا السبب قرر الاستغناء عن بعض الأوصاف أو على الأقل إيجازها في عبارات دقيقة ، بدون أن يتأثر مضمون الحكايات أو يتغير معناها . إنه يترجم ليكون مقروءا ، ولا بد أن يجتنب التكرار والتفاصيل المملة ...

ومما لا شك فيه أن جالان تصرف في ترجمة الكتاب ليقرب النص العربي إلى الذهنية والذوق الفرنسيين . ولقد امتدح العديد من المترجمين طريقته في الترجمة ، لأنه لم ينجرف وراء الصنعة المتكلفة التي عرفتها لغة " الليالي " في النموذج الأصلي . صحيح إن السحر والأعمال الخارقة وعالم الجنيات والأرواح لعبت دورا كبيرا في الترجمة ، لكن المهم أن الخارق واللامؤلوف كان يحكي بكل وضوح وبساطة ورشاقة (6) ومن الملاحظ أن جالان حذف العديد من اللقطات الجنسية الجريئة ، مثل مشهد الحمام في "حكاية الحمال والبنات الثلاثة " لأنها منافية للأخلاق ، خصوصا في عصر التنوير الذي فرضت فيه الكلاسيكية قوانينها الصارمة.

وقد لا نشك في أن هذا المترجم كان مدركا أن سامعي الرواة القصاصين في الشرق هم من رواد المقاهي ، ومن الذكور على وجه الخصوص ، أي من الذين يطربون للصور الجنسية ، التي تصل أحيانا إلى درجة التعبير عن الإباحية الصريحة ... أما هو فيكتب لجمهور آخر ، فكيف لا ينقي ترجمته من هذه اللقطات . وقد يلاحظ الدارس أن جالان لم يحذف بعض الأوصاف الجنسية البذيئة في بعض الحكايات ،

وإنما اعتمد على التلميح ، وقدم الحد الأعلى من الجرأة التي يمكن أن يسر به جمهوره .

واللافت للنظر أن جالان أهمل في ترجمته النصوص الشعرية الواردة في الحكايات ، بوصفها – في نظره – تزويقات عميقة ، مقحمة في النص الأصلي ، وهزيلة رتيبة في أغلب الأحيان ... ومن الملاحظ أن حذف هذه الأشعار لم يؤثر كثيرا على الترجمة لأنها ، أصلا ، لا تلتئم مع السياق القصصي ، ولا تخضع في أكثر الحالات – للمقاييس الفنية المعروفة (الوزن ، اللغة)...(7)

واللافت للنظر أيضا أن جالان اجتنب تقسيم الحكايات إلى ليال ابتداء من المجلد السابع من الترجمة (8) ، كما تخلى عن العبارات التي ترددها دنيازاد في نهاية أو بداية كل ليلة :" فقالت لها دنيازاد ما أطيب حديثك وأعذبه" أو" يا أختاه أتممي لنا حديثك الذي هو حديث..." ويشير المترجم في مقدمة المجلد السابع أنه التجأ إلى هذا الأسلوب ، لأسباب فنية ، ولا سيما أن قراءه قد لاحظوا أن تدخل دنيازاد يزعجهم(9)

في الواقع ، لقد تصرف جالان في ترجمته حتى يلائم ذوق عصره . ومن الواضح للغاية أنه كان أديبا قديرا وبصيرا بفن القصة ، عرف كيف يبسط حكاياته للجمهور الفرنسي في ثوب أنيق ... ولعل من مظاهر الروعة في هذه الترجمة أن خلدت الجان والعفاريت الشرقية التي علمها كيف تنطق اللغة الفرنسية اسمه في تاريخ الأدب إلى الأبد .

لقد حدد المتخصصون في الترجمة ثلاث طرائق لها : الأولى طريقة الترجمة الحرفية دون التصرف بالنص الأصلي . والثانية طريقة الترجمة المعنوية التي تسمح بنوع من التصرف في النص الأصلي ، على أن يحافظ على المعنى قدر الإمكان . أما الطريقة الثالثة فهي طريقة تزييف النص وتغييره دون الالتفات إلى الألفاظ والمعاني...

ومن الواضح أن جالان قد اختار الطريقة الثانية ، طريقة الأسلوب الذهبي التي تلاحق المعاني والأحاسيس بدلا من الكلمات . ومن الواضح أيضا أنه آثر الدقة والإيجاز (أي تنقيح الترجمة من الأوصاف الطويلة والتفاصيل التي تثقل النسق القصصي) من أجل تقريب النص العربي إلى الذهنية الفرنسية التي كانت تحبذ ، في هذه الفترة الوضوح والبساطة . ويكفيه فخرا أنه كان أمينا في ترجمة

الأفكار والمعاني واللقطات الفنية الرائعة ، وأنه كان يعنى بإضافة ملاحظات وشروح وجيزة في الحواشي ، تفسر العادات والتقاليد الشرقية ، وكل ما قد يغمض على القارئ من أمور تتعلق بأجواء الليالي ومعانيها .

إن ترجمة حرفية لـ " ألف ليلة وليلة " في هذا العصر (القرن الثامن عشر) لم تكن لتظفر بأي نجاح في فرنسا ، لهيمنة الذوق الكلاسيكي الذي ينبذ التكرار وسرد التفاصيل المملة . وقد لا نبالغ إن قلنا إن التقيد بالنص الأصلي في مثل هذه الحالة - قد يؤدي إلى غموض المعاني وركاكة الأسلوب ، ويجعل من الترجمة عملا جافا يفتقر إلى القيم الجمالية ...

ب - مشكلة المخطوطات :

لقد اتهم أنطوان جالان بإضافة حكايات إلى الترجمة لا توجد في مخطوطات " ألف ليلة وليلة" وهذه الحكايات ، في الحقيقة ، قليلة . وهي (باستثناء حكايتي بيتي دولاكروا) :

- حكاية "علاء الدين والفانوس السحري" .
- حكاية "علي بابا والأربعين حرامي ".
- حكاية "الأخوات الغيورات" .
- حكاية" حسن الحبال"
- حكاية "الأعمى بابا عبد الله"
- حكاية" الأمير دربابار"

والجدير بالذكر أن بعض الدراسات قد اثبتث بشكل قاطع نسبة الحكايات الثلاثة الأولى إلى كتاب " الليالي " . فلقد عثر الأستاذ زوتنبرع (ZOTENBERG) على مخطوطة بغدادية تحوي حكاية "علاء الدين والفانوس السحري" ونشرها في كراس مستقل(10) سنة 1888 . واكتشف الباحث ماكدوناد (MACDONALD) النص العربي لحكاية "علي بابا والأربعين حرامي " في مخطوط عربي مجهول الأصل ونشره في مجلة الجمعية الأسيوية الملكية سنة 1910. وأكد إدوارد مونتي (MONTET) على أن حكاية" الأخوات الغيورات" جزء لا يتجزأ من "الليالي " العربية ضاعت من المخطوطات لسبب أو لآخر (11) .

ومن دراسة باحثين آخرين لحكايات " حسن الحبال " و"الأعمى بابا عبد الله " و " الأمير دريابار" اتضح أنها تحمل من الخصائص والسمات والأجواء التي توحي بلا تردد أنها تنتمي إلى مجموعة الليالي .وبهذه الدراسات يرفع الشك الذي وصفت به ترجمة هذه الحكايات ، مادام البحث العلمي قد أثبت أصالة انتمائها إلى كتاب " ألف ليلة وليلة " .

ومن مآخذ النقاد أيضا على جالان - كما ذكرنا - عدم ترجمته لكل الحكايات الموجودة في المخطوط الشامي الذي اعتمد عليه . وهذا في الحقيقة انتقاد مفرط في الجور ، لأن المترجم كان يعمل على مخطوطات ناقصة وعسيرة القراءة أحيانا فضلا عن أنه الزم نفسه بعدم تكرار الحكايات التي سبق أن ترجم ما يشابهها ...

وعلى الرغم من كل الصعاب ، فلقد استطاع جالان أن يقوم بعمله أحسن قيام وفي وقت مبكر ، معتمدا على مخطوطات ناقصة ، نافذا إلى روح الكتاب ، ومطوعا لغته لقبول المعاني العربية قبولا لا يظهر فيه الشذوذ أو النشاز . ومما يذكر أن بعض أصدقائه كانوا يطلعون على الحكايات المترجمة قبل نشرها : فلقد اعترف الأب بينيون ، وهو عضو في أكاديمية الفنون الجميلة ، أنه " التهم نسخة المجلد التاسع قبل نشرها ، في عربته ، وعلى ضوء شمعة ، أثناء عودته من فرساي إلى باريس ...(12) .

في الحقيقة ، لقد قدم أنطوان جالان لجمهوره الفرنسي ، في القرن الثامن عشر ، ترجمة أنيقة الأسلوب ، رائعة السبك ، تتسم بالوضوح والبساطة ، فالأحداث والصور رسمت بيد شاعر وبكل تقة وثبات ، والأجواء الشرقية قربت إلى القارئ الفرنسي في ديباجة مشرقة... ويكيفه شرفا أن ترجمته راجت في كل أنحاء أوربا رواج الأديسة والإنيادة .

لقد كان كل شئ ، في هذه الترجمة ، جديدا على القارئ الفرنسي : صورها الجميلة التي تظل عالقة في الأذهان ، مغامراتها العجيبة التي تمزج بين الحقيقة والخيال ، أبطالها الذين يغامرون بالنفس والنفيس من أجل الحبيب ... ولئن كانت (الترجمة) غير مكتملة ، فإن هذا الأمر لم يترك أثرا كبيرا على قيمة العمل ، لكونها رائدة تضمنت أجمل وأهم القصص المعروفة في الكتاب الأصلي ، وله اليد الطولى في التعريف بحكايات شهرزاد والتنويه بها .

2/ شهرزاد التنويرية :

الحق ، إن هذه الترجمة قد خلفت صدى قويا في الأوساط الفكرية والأدبية في عصر التنوير ... كانت تأثيراتها قوية ومتنوعة ... ولقد قادت هذه التأثيرات ، في بداية الأمر ، إلى ظهور سلسلة من الأعمال المقلدة للحكايات الشهرزادية (Imitations) ، إذ درج بعضهم على تقليد المجموعة العربية تقليدا مباشرا ، محاولا الكتابة على نمطها . ويبدو أن سبب هذا التقليد مرده رغبة الجمهور الفرنسي إلى هذا النوع من الأدب الجديد ، وكأن ما في " الليالي " من مغامرات عجيبة وأجواء فاتنة ، لم يرو ظمأه...

إن عدد الكتاب الفرنسيين الذين حاولوا تقليد "الليالي" لا يمكن حصره بسهولة ، فلقد استوحى بعضهم من عنوان المجموعة العربية أسماء لكتبهم مثل " ألف ساعة وساعة " و " ألف سهرة وسهرة " ، واقتبس البعض الآخر منها الصور والمشاهد مثل "وردة الشوك " و"سلطانات الجزر " ... ولقد اتفق النقاد على تسمية هذه الروايات والقصص المقلدة بـ "ملحقات ألف ليلة وليلة " (13) .

وهذا جدول ببعض عناوين هذه " المقلدات" التي ألفها كتاب فرنسيون ، مدعين - تارة- أنهم ترجموها من مخطوطات شرقية ، ومعترفين - تارة أخرى - أنها من تأليفهم ووحي خيالهم .

السنة	المؤلف	عنوان الكتاب
1710	بيتي دولاكروا	ألف يوم ويوم
1714	جوليت	ألف ربع ساعة وربع ساعة
		ألف فضل وفضل
1717	مونكريف	أسفار ومغامرات أمراء
1719	دوميلي	سرنديب الثلاثة
		وردة الشوك
1730	أنطوان هاملتون	سلطانات الجزر
1732	جوليت	ألف ساعة وساعة ، حكايات
1733	جوليت	من البيرو
1740	جازوت	ألف لغو ولغو
1742	كيلس	حكايات شرقية
1745		

1747	هنري باجون	حكاية أبناء علي الثلاثة وبنات السيركو الثلاث .
1747	الآنسة دوليبر	الأمسية اللطيفة
1749		حكاية الملك العجيب
1749	هـ . باجون	والملكة هتيروك
1750	جوليت	ألف أمسية وأمسية
1750	ديسفوج	ناتاليكا ، حكاية هندية
1751	أنسلان	غراميات محمد
1752	ف. ماري أنوانيطت	كانور
1753	كريبيون الابن	آه ! يا لها من حكاية
1753	الآنسة دوليبر	مراد والتركية
1756	هنري بلان	رواية شرقية
1759	جابريال ملهول	حكايات النهار
1769	ديكلو	خمسمائة صبية وصبية
1771	آتون	حكايات أخلاقية
1772	سان لمبير	خرافات شرقية
	ج.ب نوجاري	ألف حماقة وحماقة
	أ . هورنو	

أ/-" سلطانة فارس " و " ألف يوم ويوم " :

كان أول من سعى إلى تقليد " الليالي " المستشرق بيتي دولاكروا ، الذي انضم ، منذ البداية إلى صف جالان ، وابدى اهتماما متميزا بالحكايات الشرقية ، ولقد ألف هذا الأديب ، قصة " سلطانة فارس والوزراء " (14) عام 1707 ، ثم مجموعة " ألف يوم ويوم " (15) التي ادعى أنه ترجمها من مخطوط فارسي ، كان قد التقى بصاحبه الدرويش مخلص (16) في أصفهان عام 1665 .

تضم " سلطانة فارس والوزراء " مجموعة من الحكايات تدور حول الخيانة الزوجية ومكر المرأة . وهي تذكرنا ، إلى حد بعيد ، بكثير من حكايات الليالي ، وخصوصا بحكايتي " الأسعد والأمجد " و"الوزراء السبعة " ... (17) وخلاصة رواية بيتي أن أحد ملوك فارس

تزوج بجارية فاتنة ، وكان له ابن شجاع ، كريم النفس ... وقد حدث أن أحبت هذه الجارية الأمير حبا قويا ، فراودته عن نفسه ، ولما رفض شكت أمره إلى الملك مدعية أنه حاول اغتصابها ... وكان للسلطان سبعة وزراء أذكياء ، نصحوه بالعفو على ابنه وظلوا يقصون عليه ، لمدة أربعين يوما ، قصصا تصور في أغلبها خيانة المرأة ... وكانوا يقطعون حكاياتهم في مواضع مشوقة ، ربحا للوقت (أي حتى يتركوا للسلطان الوقت الكافي للتفكير والعدول عن قراره المتمثل في إعدام الأمير)... وقد استطاع الوزراء في نهاية المطاف ، أن يبعدوا التهمة عن أميرهم وطرد الجارية من القصر ...

أما مجموعة " ألف يوم ويوم " (1710) فشبيهة بـ " ألف ليلة وليلة " شكلا ومضمونا . ولا يستبعد الباحثون ، وعلى رأسهم المستشرق فون هامر ، أن يكون بيتي قد نسجها من خياله ، مدعيا أنه ترجمها من مخطوط فارسي (مجهول) (18) ويبدو أن بيتي كان يبحث عن الشهرة التي حظي بها زميله جالان ، وإلا كيف نفسر سبب استعانته بالأديب لوساج المعروف برشافة الأسلوب في تحرير هذه القصص .

ولقد اختار بيتي لمجموعته إطارا شبيها بإطار الليالي ، وهو الإطار الذي يعلو جميع الحكايات ويوصل بين أجزائها . فلئن كان شهريار في " ألف ليلة وليلة " قد قرر الانتقام من المرأة بعد أن هزته خيانتها ، فإن الأميرة " فارينكار" في " ألف يوم ويوم" هي التي عقدت العزم - هذه المرة - على قتل الرجال بعد أن " تأكدت من غدر الذكر " في حلم مزعج ...

وفيرينكار هي ابنة توغريل باي امبراطور كاشمير العظيم . كانت تكره الرجال ولا تتردد في إعدام كل من يحاول أن يمتع نظره بجمالها ، لأنها رأت في حلم مزعج أحد الغزلان يتخلى عن غزالته التي سقطت في فخ الصياد (لم يأبه بها وهي تئن ، وإنما تركها أسيرة وفر إلى الخلاء)... وحتى يعالجها أبوها من مرضها ، اختار لها قاصة حكيمة تدعى " ستلميمي " وطلب منها أن تحكي لها قصصا وحكايات تدور حول إخلاص الرجال وتفانيهم في حب النساء...

وتذكرنا " ستلميمي " الماهرة ببطلة "الليالي" شهرزاد" : أحداث حكاياتها تدور في دائرة شرقية مفتوحة (فارس ، الهند)

وشخصياتها تتحرك وفقا لنمط " الليالي " وإن اختلفت معها في الأسماء . وقد استطاعت الراوية أن تحقق هدفها وأن تقضي على أوهام الأميرة بعد صراع استغرق ألف يوم ويوم ؛ ففي كل قصة من قصصها رجال نبلاء ، مخلصون لحبيباتهم ، يجهدون من أجل راحتهن وسعادتهن ...

ب – " وردة الشوك" و" ألف ساعة وساعة " :

في الحقيقة ، إن مجموعة بيتي لم تفلح في تسكين نهم القارئ الفرنسي . فكان ضروريا " أن يتنافس المهتمون بإذاعة ألف ليلة وليلة في نشر قصص لا توجد في نسخة من " الليالي " زاعمين أنها منها ، وأنها لم تنشر . ولكن هذا التقليد قد تعدى " ألف ليلة" نفسها إلى قصص تشابه " الليالي " ، فترجموا قصصا شعبية عن الأمم الشرقية الأخرى أصدروها تحت أسماء مختلفة : فهذه قصص فارسية وتلك تركية ، وأخرى شرقية لا تضاف إلى أمة معينة بل إن منها القصص المغولية والقصص التترية (19) .

وليس غريبا أن تستهدف محاولات التقليد النجاح لنفسها ، فالفرصة كانت مواتية ، والحكاية الشرقية ملكت أجيالا كاملة . وقد حاول العديد من الكتاب مغازلة هذا الذوق الجديد ، بخلق جنيات شرقية ورحلات عجيبة شبيهة برحلات السندباد البحري وعبد الله البري وحسن بدر الدين وغيرهم من أبطال الليالي الخالدين ... وهكذا نشط أدباء فرنسا في التأليف لسد حاجة هذه " الحساسية" الجديدة : جولييت (Gueulette) ينشر ما يسميه " ألف ربع ساعة وربع ساعة " وكايلوس يؤلف " حكايات شرقية " والآنسة دوليبر تطبع " مراد والتركية " والسيدة غوميز تكتب "مائة أقصوصة جديدة " ، والأب بينيون ينشر " مغامرات عبد الله " ، إلى غير ذلك من الروايات والقصص التي دغدغت عواطف القراء الفرنسيين ، متيحة لهم سبيل الهروب إلى مناطق بعيدة وآفاق جديدة لم يألفوها من قبل في آدابهم الكلاسيكية .

واللافت للنظر أن هذه القصص والحكايات كانت تقلد " الليالي" في كل شيء : في صورها وشخصياتها ، وأجوائها ، وفنياتها. ولعل من أبرز مظاهر هذا التقليد استعمال " القصة الإطارية " التي تشمل مجموعة من القصص الفرعية وتربط بينها ربطا محكما . ففي قصة

" ألف ربع ساعة وربع ساعة " نلتقي بالراوي ابن ايريدون الذي يحكي كل يوم ولمدة ربع ساعة حكاية للملك العظيم استركان ... ولقد كلف هذا القاص بتسلية السلطان - الذي فقد بصره - انتظارا لعودة الطبيب الذي سافر إلى منطقة نائية بحثا عن الدواء العجيب ... وهو (ايردون) يظهر بارعا في حكايته التي يقطعها في المواقف المشوقة مستعينا - من حين لآخر - بأبطاله الذين يتدخلون في الوقت المناسب لسرد حكايات فرعية ، لطيفة ومسلية ، جاعلين الملك يتساءل دائما "ماذا سيحدث بعد ذلك؟".

أما حكاية " ألف ساعة وساعة " لجولييت فتروي قصة ملك شرقي قرر الانتحار قصد التخلص من مشاكله الكثيرة والمعقدة ... غير أن جنية تتدخل في الأحداث لإنقاذه : تتقدم إليه في شكل جارية جميلة وتقترح عليه أن تقص له يوميا ، لمدة ساعة واحدة فقط ، قصة عجيبة . وتتمكن الجنية ، في نهاية المطاف ، وبالاعتماد على أسلوبها المشوق الذي يثير حب الاستطلاع ، أن ترجعه إلى مسؤولية، بل أن تقنعه أن الحياة يجب أن تواجه بالعقل والحكمة ... ولقد اعتمد المؤلف في روايته على مزج حكاية بأخرى ، إذ ترك المجال لجنيته مفتوحا للاستعانة بأبطال حكايتها الذين كانوا يقحمون في النص لسرد تجاربهم (وهي كلها تعبر عن مشاكل الحياة وأهوالها) .

وتحتل أعمال أنطوان هاملتون مكانة مرموقة ضمن الأعمال المقلدة لليالي . ولعل أهم ما كتبه في هذا المجال " وردة الشوك " التي أرادها أن تكون مكملة لحكايات شهرزاد ، إذ نجد فيها دنيازاد تواصل مهمة أختها بعد أن لاحظت عليها ، في الليلة 999 ، علامات الإرهاق: "دعيني يا أختاه ، أحكي له حكايات جديدة ... إنها ستعجبه لا محالة" وتتدخل دنيازاد - فعلا - في مجرى الأحداث ، لتسلي شهريار بقصص لا نهاية لها ، وتتجلى - من خلال حكاياتها التي تدور أحداثها في عوالم سحرية عجيبة - ماهرة باهرة ، بل تستطيع بفضل حنكتها – أن تنال إعجاب الملك الذي يعدل عن قراره الرهيب : إعدام كل نساء المملكة ...

لقد كان طبيعيا أن تتحول شهرزاد الرمز إلى مصدر خصب للخيال الفرنسي في القرن الثامن عشر ،وأن يتبوأ شرقها الجميل المكانة الأولى في الفن الفرنسي عموما ... فالأديب الذي كان متعطشا

للتجديد والانفتاح ، في هذه الفترة ، قد وجد ضالته المنشودة في الحكايات الشهرزاية بوصفها مادة روائية ثرية تأسر العقول والقلوب... زد على ذلك أن الجمهور الفرنسي الذي كان تواقا إلى كل ما هو غريب وأجنبي لم يجد عالما أبهى وأجمل من عالم شهرزاد ، ولا أغنى منظرا ومخاطرات منه ...

كانت حكايات شهرزاد أشبه بالضوء الساطع القوي الذي انجذب إليه العقل الفرنسي منذ أن رآه معبرا عن واقع جديد وجميل... وقد لا نبالغ إذا قلنا إن أجيالا من الأدباء الفرنسيين نهلت مادتها منها ، وأن فلاسفة " التنوير " أنفسهم وقعوا في دائرة سحرها: فهذا مونتيسكو يعترف بأنه تأثر بها كثيرا في صياغة روايته الشهيرة " الرسائل الفارسية " سنة 1721 . وذاك فولتير يشهد بأنه لم يصبح قاصا إلا بعد أن قرأ الليالي أربع عشرة مرة قراءات متأنية واعية . ولننصت إليه يقول في مقدمة قصته الشهيرة " زديج" أو " القدر " 1748 ، مخاطبا البطلة شهرزاد ، الشخصية التي ألهمت المفكرين والفنانين ولقنتهم دروسا في الفلسفة والأدب :

" رسالة إهداء قصة زديج إلى السلطانة شهرا من سعدي ...

يا فتنة العيون ، وعذاب القلوب، ونور العقل ، لا ألثم غبار قدميك لأنك لا تكادين تمشين ، وإن مشيت فعلى زرابي إيران أو على الورود .... فمع أنك في ربيع حياتك ، ومع أنك قبلة جميع اللذات والمسرات ، ومع أنك حسناء هيفاء ، ومع أن الثناء عليك متصل منذ يقبل الليل إلى أن يسفر الصبح ، وأن من شأن هذا كله أن يباعد بينك وبين القصد ، فأنت على الرغم من هذا كله راجحة العقل، وعلى جانب كبير من الحكمة والذوق الرهيف ... وقد سمعتك تجادلين بأصالة الدراويش الشيوخ وأنت إلى ذلك رزينة ، حليمة ... (20)

III ــ الخاتمة

في الحقيقة ، إن شهرزاد نبع لا ينضب للفن والأدب ، رمز خصب قادر على العطاء ... ولقد أشاد المفكرون الفرنسيون ، الذين اطلعوا على حكاياتها ، بتأثيراتها الأدبية اللامحدودة التي حظيت بها في الأدب الفرنسي حتى على صعيد الأوبيرا وقصص الأطفال ... إنها شخصية أدبية فذة ، فنانة وفيلسوفة ألهمت المفكرين في كل مكان بحكمها ودروسها وتجاربها وذكائها ...

وإنه لمن الطبيعي جدا أن تحوز الحكايات الشهرزادية على إعجاب الفرنسيين والأوربيين بل أن تؤثر في أدبهم تأثيرا مباشرا ... وقد أعطى المستشرق فكتور شوفان قائمة طويلة جدا بأسماء الأدباء الأوربيين الذين تأثروا بها تأثيرا واضحا : فيلاند ، بورغر ، فولتير ، كلينغر ، هوفمان ، مونتيسكيو ، غوبينو ، روكرت ، إيمرمان ، هاوف، تنيسون ، كاميسو بينتشرستو، ديكنز ، اديسون ، أولنشليغر.... ومع ذلك فهو يعترف أنه لم يذكر سوى نخبة محدودة من الأدباء لعدم اكتمال الشواهد عنده (21)

لقد ظلت شهرزاد ، مدة ، مدة طويلة من الزمن ، تلهم ، وتعلم، تظفر بإعجاب الأدباء والفنانين . وجدت ، في كل مكان ، تربتها الخصبة ، فنبتت وأثمرت بلا حواجز عنصرية أو عقد نفسية ... فهي تفتح دائما آفاقا جديدة للإبداع والتخيل ، أشبه بالضوء الساطع الذي يسيطر على القلوب والعقول ...

إن البطلة شهرزاد ، وهي تنتقل من الشرق إلى فرنسا ، حافظت على العديد من خصائصها الأصلية ، واكتسبت ، في الوقت نفسه، سمات جديدة أضفت على شخصيتها أبعادا جمالية واجتماعية ونفسية حية ومرنة : لقد ارتدت - بعد هذه السفرة - ثيابا جديدة وأفكارا أجنبية واردة عليها وحياة غريبة : فهي ، تارة ، صورة لمن يهتدي إلى الحقيقة ويرشد إليها عن طريق العقل والعاطفة ، رمز الهداية والرقة والنعومة ... وهي تارة أخرى أنموذج المرأة الجميلة ، الخلابة ، المغرية جنسيا ، الماكرة ، اللغز الساحر ... وهي، تارة ثالثة ، صورة للمرأة الفنانة العبقرية التي استطاعت أن تعيد للحياة ذوقها ونكهتها .

وهكذا لم تقف هذه البطلة عند حدود الشرق ، أرض الديانات والعقائد التي أنتجتها ، وإنما تعدتها إلى الغرب (بدءا بفرنسا) وأصبحت ملكا لفنانين أجانب ... ولسنا نبالغ في شيء إذا قلنا إنها أمدت الأدب الفرنسي بعالم وافر من الرموز والأفكار والصور وصيغ السرد : جهزت الرواية الفرنسية بأساليبها وحبكها وتأملاتها الفلسفية ، وقدمت للمسرح لقطات رائعة ومشاهد فاتنة وشخصيات نموذجية تعبر ببساطة عن آمال البشرية وآلامها ...

الهوامش

1- ألف ليلة وليلة :، مقابلة وتصحيح محمد قطة العدوي ، مطبعة بولاق ، 1252، 1 / 14

2- إن هذه الجملة " أدرك شهرزاد الصباح ، فسكتت عن الكلام المباح " عي العمود الفقري في " الليالي " هي التي تجعل الكتاب وحدة واحدة متماسكة

3 - أم . فورستر ، أركان القصة ، ترجمة كمال عياد جاد ، القاهرة ، دار الكرنك ، 1960، ص 35

4- أحمد حسن الزيات ، في أصول الأدب ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1935 ، ص 61

5- أنطوان جالان (1646-1715) مستشرق فرنسي مشهور ، درس اللغة العربية في الكلية الملكية وتقلب في عدة مناصب دبلوماسية . لمزيد من التفاصيل ينظر بحثي الموسوم بـ " أنطوان جالان " مجلة الآداب الأجنبية ، ع 98 ، ربيع 1999

6- كاترينا مومسن ، جوته وألف ليلة وليلة ، ترجمة أحمد حمو ، دمشق ، منشورات وزارة التعليم العالي ، ط1 ، ص 11

7- إن الليالي تشتمل على قصائد شعرية كثيرة توضع – عادة - على لسان المتحدث ... ومن الملاحظ أنها تبالغ في تضمين المتحدث ... وأغلب الظن أن واضعيها لم يتوخوا المقاييس الفنية المعروفة ...

8- إن توزيع الحكايات إلى ليال في المجلدات السنة الأولى جاء على الشكل التالي :

المجلد الأول من الترجمة يمتد من الليلة (1) إلى الليلة (30)
المجلد الثاني من الترجمة يمتد من الليلة (31) إلى منتصف الليلة(69)
المجلد الثالث من الترجمة يمتد من الليلة (69) إلى الليلة (110)
المجلد الرابع من الترجمة يمتد من الليلة (111) إلى الليلة (165)
المجلد الخامس من الترجمة يمتد من الليلة (166) إلى الليلة(204)
المجلد السادس من الترجمة يمتد من الليلة (205) إلى الليلة (264)

وفي المجلد السادس (وكذلك باقي المجلدات) توقف جالان عن توزيع الحكايات على الليالي .

9- يبدو أن جالان أهمل هذا الأسلوب بعد أن قصفت مجموعة من السكارى شبابيك نافذته في الصباح الباكر وهي تردد النص الذي تكرره دنيازاد ...

10- Zotenberg , Notice sur quelques manuscrits des Mille et une nuits , Paris , 1888 .

11 – E.Montet , Le conte dans l'Orient musulman , Paris , E.Leroux , 1930 PP ,16-45

12 – C.F . Journal d'Antoine Galland , édité par SCHEFFER , 1881 , (Journée du 12-12-1079)

13 – C.F. M . L . Dufrenoy, l'Orient romanesque , Montreal , Beauchemin , 1946

14 – Histoire de la sultane de Perse et de ses vizirs .

15 - Les Mille et un jours , Contes Persans

16- يعترف بيتي في مقدمة كتابه أن الدرويش مخلص كان من أعز أصدقائه أثناء إقامته في أصفهان ... وقد أهدى إليه مخطوط "ألف يوم ويوم " وأبدى موافقته على ترجمته إلى اللغة الفرنسية .

17- في حكاية " الوزراء السبعة" تزعم جارية الملك أن الأمير راودها عن نفسها ... ويضطر هذا الأمير إلى السكوت سبعة أيام كما أمره الحكيم سندباد حرصا على حياته . ويقوم وزراء الملك السبعة بالدفاع عن الابن ، فيقص كل واحد منهم قصة ردا على ما تقصه الجارية على الملك كل يوم تأييدا لدعواه ...

18- إن " ألف يوم ويوم " لم تدرس إلى حد الآن دراسة علمية دقيقة ... ويرى بعض الدارسين أن هذه المجموعة لا تمت بصلة إلى الآداب الشرقية ، وكل ما في الأمر أن بيتي حاول أن يقلد فيها الليالي مدعيا أنها من أصل فارسي ... لمزيد من التفاصيل ، ينظر :

E.Montet , Le conte dans l'Orient musulman , pp 16-20

19 - سهير القلماوي ، ألف ليلة وليلة ، القاهرة ، دار المعارف ، ط4،ص67 .

20 - Voltaire , Zadig ou La destinée , p 5

21 - Victor Chauvin , Bibliographie des ouvrages arabes ou relatifs des arabes, Liège , 1900 Volume 5